ليلك أخضر

ليانة بدر

في الماضي القريب، بل الصيف الفائت، وعندما كنت تقرأ لنا قصيدتك الجديدة للمرة الثانية، قلت لك أنني افتتنت باللفظة، وأنني سوف أسمي روايتي القادمة " لَيلُكَ أخضر " . كانت فلسطين روايتك، وكنا نحن أهلك وعائلتك، بناتها وأولادها نسكن قصائدك . لذلك أفتتح الكلام عنك ب " ليلك أخضر " .

أريد أن أتكلم عنك كانسان، لا كنجم تصطاد أخباره الإذاعات والفضائيات حتى لتجرؤ على إعلان موته قبل أن يفارق الحياة . أريد أن أتحدث عنك حينما تحمل ابنة العائلة " حنين " الصغيرة بين يديك بشهورها، التي تدور حول العام، وتناغيها وتلاعبها، ثم تعلق على بدانة مبكرة في ساقيها، وعلى جمال لون عينيها .

أريد أن أحكي . أن أقول . أن أفكر من جديد داخل هذه الحروف والكلمات كيف أن ما مضى لم يمضِ، وأنك قد صنعت حياتنا داخل هذه الكلمات ذاتها . أتذكرك . أتذكرك . أتذكر . كي لا تمضي . كي لا تنسانا . كي لا تتركنا وترحل .

ليانة بدر، قاصة وروائية من فلسطين، رام الله

أحيانا أحس أنك تجلس بالقرب منا وتراقب ما يحدث بعينيك الثاقبتين فاتحتي الخضرة. أحياناً، كما حدث بالأمس أثناء حفل تأبينك في قصر الثقافة، رأيتك تطل علينا من سماء القاعة، وتنظر لخمس دقائق. خمس دقائق استرعى فيها انتباهك صوت المغنية القوي الحنون. وعندما انتهت الأغنية، قررت أن تمضي.

كان الهذر نفسه. التكرار ذاته. شهود رسميون أقل موهبة منك كثيراً، أقل حكمة أو دراية بالحياة بما لا يقاس، حاولوا أن يقدموا شهادتهم في مدى أهميتك. مقطوعو المواهب يقرأون كلماتك هذراً أو كالهذر. أدعياء الفنون يتطاولون على مزاجك المتشدد في صدق الفن وقدرته على النفاذ إلى أعماق الروح.

ولا أحد إلا القلة، يعرفك حقاً.

وقبل أن أسترسل في الكلام أتعجب كيف أنني أكتب، وتنساق الحروف دون أن تصل إلى راعي الحروف وسيد الكلمة أولاً. فقدٌ منحتُ هبةً من الحياة تجلت في اطلاعك الحاذق والتفصيلي على ما أكتب، بحيث أنك لم تكن تعطيني التعليقات التي تتناول التفاصيل، بل تخبرني عن الاكتشاف المتجدد للأدب والفن. وكنت أعدل خط السير متناغماً مع جوهر التذوق والحكم الذي يصدر عنك. وحيث أن الحياة قد أعطتني شرف صداقتك، فأنا حريصة على أن تكون كلماتي المقبلة، كلها، تحت رعايتك.

أريد أن أتكلم عنك كعنصر رئيس وجوهري في حياة المبدعين والفلسطينيين كلهم. لم تكن زينة أو حلية في حياتنا، فلم تجذبك إغراءات القمم كي تنسجم في العزلة أو الشتم، إنما انتميت إلينا، وإلى همومنا، وبنصوصك أعطيتنا الخبز والشراب في أحلك اللحظات، وأصعبها، وأكثرها تأثيرا في حيواتنا.

كم كنت تصبر على خصومك، وتخاطبهم بدماثة التواضع العبقري، كنت تحتملهم لثانية أو ثانيتين، أو ساعة أو أقل. لكنك هنا، كنت تتطلع إلى القاعة وكأني أسمعك تقول: ماذا يفعل الحضور هنا؟ أيحبني بعضهم إلى هذا الحد؟ أأصدق بعضهم ممن يمثلون التباكي، وادعاء المرارة، فمريدي ليسوا كثيرين حسبما يظهرون، كما أنهم ليسوا قلة أبداً.

ليسوا كثيرين، وليسوا قلة!

بالضبط ! تماماً. مثل سنوات عمرك التي استبطنتها الأم بين عمودين بيزنطيين في البروة . لن تعيش سنوات قليلة، لكنها ليست كثيرة أيضاً.

أريد أن أحكي. أحكي! كي لا أبكي.

أحكي عن حقولك الخضر التي زرعتها في أرواحنا .

عن زمرد الأيام التي وهبت لنا وأنت معنا .

عن وهج الصداقة الذي لا ينطفئ.

وعنك . أنت . أنت نفسك وكما عرفناك .

عن الصديق الذي لم يغادرنا لحظة كي لا نشعر بغياب الأهل أثناء مراسيم العزاء في "خليل" شقيق ياسر الذي قضى عليه السرطان في عز الشباب، فبكى معنا، ولازمنا ليلاً نهاراً لأنه يعرف عمق حسرتنا ، ثم رجانا مخلصاً إن كان بإمكانه أن يقدم أي عون حتى المادي، لأنه يعرف إرباك هذه الظروف.

وعنك أتكلم !

عن الشاعر الكبير رئيس تحرير "الكرمل" في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٨١، حينما توجهت إليه في مقر اتحاد الصحافيين الفلسطينيين في الفاكهاني، وهو جالس وسط جمع من أعضاء الأمانة العامة للإتحاد وقدمت له قصة " أرض من حجر وزعتر" للنشر في مجلة "الكرمل" .

كانت "الكرمل" رمز الطموح الفلسطيني بالتفوق والانتشار عربياً وعالمياً، فأشبعتني دعابة ومزاحاً حول ما إذا كنت كتبت القصة بنفسي حتى تهيأ لي أنها قد تنشر أو لا تنشر بسبب من سخريتك الودودة وأنت الصديق الأقرب لعائلتنا.

أكان من تكلم معي هو رئيس التحرير ذاته الذي قرأها في التو بعدها، واتخذ قراره بنشرها فوراً حتى أنه اتجه إلى مطبعة "الكرمل" في الفاكهاني كي يعطيها أولوية النشر بدلاً من قصة أخرى لكاتب عربي معروف. فيما بعد كنت تعاتبني مازحاً بأن قصتي كانت ستحمل مسؤولية موتك عندما حملتها مستعجلاً كي تدرجها في الطباعة للعدد ذاته من "الكرمل" . كان من الممكن أن تصيبك الطائرات الإسرائيلية التي أغارت على منطقة "الطريق الجديدة" في بيروت في ذلك الصباح تحديداً والذي دمرت فيه الطائرات الحربية، أكثر من ٢٣ بناية، وقتلت وجرحت المئات. فاجأتك الطائرات وأنت على الرصيف قريباً من المطبعة. "ركضنا، وركضنا كي نحتمي

والطائرات تغير فوقنا وهي قريبة منا قاب قوسين أو أدنى" . كما أخبرتني فيما بعد.

فقط من هذه الحادثة أتيح لي أن أعرف سلم أولياتك. فعندما كنت تخبرني فيما بعد بأنك معجب بديمقراطيتي تجاه الأبطال الذين اختارهم. وأنني لم أكن أنساهم، وأحل صوتي ككاتبة بديلاً عنهم كما يفعل كتاب آخرون. كنت أحس أنني تلميذة في هذا الصرح الثقافي الهائل الذي يجسده إنسان مختلف لا يتعامل مع الكتاب حسب تأثير سمعتهم الإعلامية بقدر ما ينتبه إلى النص ذاته وإلى الكتابة.

ومن موقعك كرئيس تحرير للمجلة الأدبية الأهم في تاريخ الثقافة الفلسطينية الحديثة، كانت الأصوات الخافتة والحقيقية لأفراد بسطاء مثل "يسرى" و"أحمد" في مخيمات لبنان هي ما يستهوي عشقك الروحي. لم تصدق الرياء أبداً، ولم يخدعك الزيف لحظة واحدة. ولهذا وقفت معي في الكتابة في بدايات النشر مقابل كثيرين استهانوا بي وبغيري ممن لم يكنوا جزءا من شلة، أو أصحاب نفوذ.

وحين قمت بنشر مجموعة "شرفة على الفاكهاني" كاملة في "الكرمل" عرفت حينها لماذا تنحاز "الكرمل" لمن هم أمثالي أيضا. فقد كان اتحاد الكتاب الفلسطينيين الرسمي في بيروت مشيحاً بوجهه عن نشر أي مخطوطة لي. لم أكن أمثل مصلحة حزبية، أو قبائلية لأحد.

كنت في الكتابة حينها مثل أبطالي الذين أكتب عنهم. كان انحيازك يشابه انحياز أشعارك لمن لا يراهم أحد. وبقوة إدراكك فتحت طريقاً واسعة لي كي أنشر في منبرك المميز، قبل أن يجف صوتي ويداهمه اليأس بسبب الجو التنظيمي الذي يقتل الإبداع بسبب من انحيازه للانتساب الحزبي، ومحاباته للرتب التنظيمية.

وعن ماذا أتحدث؟

أعن شقيق الروح الذي كان ملجأنا حينما تضيق بنا الدنيا وتخلع أعضاءنا في الممر الأخير؟

أعن الأخ الأكبر الذي كان يستضيفنا في بيته و"يزعل" حينما لا نكون قريبين منه، فيقدم لنا المأوى ومناشف وشراشف وطعاماً وقهوة يصنعها بيديه، والأهم رفقة القلب للقلب! أم عن صانع المعجزات في كل مرة يتلو فيها لنا قصيدة جديدة تنافس ما سبقها ألقاً وسطوعاً!

ومن أين سأجد أباً روحياً، وصديقاً دائماً، وشقيقاً للفؤاد كي يرعى حقول حروفي وكل ما سوف تنبثق عنه أوراقي المقبلة، وكيف للحياة أن تجود بمن يسأل عنّا وعن الصداقات، ويحبها مثلك من جديد ؟

في مناسبة سابقة، سألني كثيرون عنك كما يسأل المرء عن صديق العائلة. من أنت ؟ وما أنت ؟ ومن هن النساء اللواتي كن في حياتك، وماذا كنت تحب أن تأكل ؟ وما هي عدد الساعات التي تقضيها نوماً أو صحواً ؟

لم يخطر ببال أحد التحري عن مطالعاتك اليومية لساعات طويلة، أو عن الوقت الذي وهبته لحياة قصائدك حتى لو كان على حساب حياتك الشخصية. وقلة هم من ذكروا "الكرمل" التي كانت أهم مشروع لمجلة أدبية نهضوية في حياة الشعب الفلسطيني، تماماً لم يعرف أحد مدى عنائك في الحصول على تمويل لها، وما كلفه إياك المثابرة على إصدارها لمدة تزيد عن خمس وعشرين سنة.

أصدقاء بعدد أصابع اليد تساءلوا عن آرائك الفكرية المفصلة، وعما تحب أن تقرأه أو عن كتبك المفضلة، ولم يهتموا بساعات كتابتك أو أنواع أقلام الحبر التي تعجبك. معظمهم أراد أن يعرف الأمكنة التي تحب أن تجلس فيها، والمقاهي التي تفضلها، وأنواع الأطباق والمأكولات، وربما أسماء مطاعم وأصدقاء أو نساء عرفتهن في حياتك لمدة تطول أو تقصر. وكلها لا تدل عليك. لأنك كنت إنسانا قبل أن تكون نجماً. أنت الساطع المنير.

أريد أن أتحدث عن هويتك كانسان، كصديق، ومفكر، أخ عطوف، وابن بار، وحبيب ساحر يلعب بالكلمات، وشقيق رائع يأتي من الجليل مثلما أتى ذلك الرجل الرسول الذي مشى على الماء من قرون كثيرة. عنك أنت الأديب الكاتب، والمفكر الإنساني من الطراز الأول. يمكنني هنا أن أتحدث عن العذوبة، عن الالتزام، عن فرط المحبة والانتماء للأصدقاء، يمكنني أن أتحدث عن أشياء كثيرة.

في البداية تتابعت الأشياء بشكل غريب. قلت أنك ستسافر للعلاج. قمت بعمل موعد معنا في "المقهى الصيفي"، وحضرت يوم الأحد لتجلس معنا في رطوبة الندى الليلي. كانت الأضواء تتلألأ في حديقة المكان. ولقد وافقت على أن تكون معنا هناك، ومع صديق لك ولياسر في اليوم التالي، لأننا أحببنا أن نعرفك بصديق آخر قدم من الخارج.

لكننا لم نجدك معنا في اليوم التالي، وهذه ليست عادتك، كنت قد اتخذت قرارا فوريا بوداع عائلتك، وهو قرار غريب لمن تهيأ لإجراء فحوصات، لا عملية كاملة. أخبرني ياسر أنك ذهبت عصراً كي تزور الأهل في الجليل. وتعجبت بيني وبين نفسي. فما هو طابع الاستعجال الذي يدفعك للذهاب السريع ؟

يوم الأحد ٢٠ – ٧ في اللقاء الأخير في حديقة " المقهى الصيفي" تحادثنا عن الأهل وعن حورية. قلت يا محمود إن الحجة – الأم حورية – سألت عني. أخبرتك أنني سوف ارتب للذهاب معك في زيارتك القادمة إلى هناك. أخبرني عندما تذهب. قلت. وعندما نكثت بالموعد يوم الاثنين على غير عادتك تعجبت. لم تخبرنا بالأمس أنك سوف تزورهم. كل ما بقي من بقايا الكلمات التي رطبتها نباتات الليل أن "الحجة" ، يعني أمك حورية، تسأل عني. كم كنت مندهشاً دوماً من الحب الذي يجمعنا ببعضنا. تقول:

غريب! أمي صعبة، ولا تقبل الحديث بسهولة مع من حولها. معكِ تتدفق الكلمات، ولا تسكت. قولي: ما هو السر؟

لا اعرف. أقول. أعرف في قرارة قلبي أنني مغرمة بها. سحرتني شخصيتها. أحبها. بل أعرف. أعرف أنني أحب هذه المرأة من كل قلبي. مشاعرنا متدفقة حينما نكون سوياً في المرات القليلة التي نلتقي بها.

هل عرفت أني وعندما نستضاف في بيتك في عمان خلال السنوات الأولى لعودتنا من المنفى إلى الوطن، كنت أظل أحدق في لوحة لقصيدتك رسمها خطاط بقلم أندلسي (عندما كنت صغيراً). هل تعرف يا محمود أن هذه القصيدة شرّشت في كياني وأنا أتأمل أبياتها آلاف المرات وأتذكر حورية؟

أقول لك : في المرة القادمة سأرتب كي أزور " الحجة" معك.

لهذا أفاجئ بأنك تذهب فجأة. اتصلت هاتفياً. رن هاتفك المتنقل قليلاً، وتهيأ لي أنه أقفل. فلم أعاود الاتصال. دق في قلبي ناقوس خطر. لم أعاود الاتصال فإسكات المحمول يعني أنك لا تريد أن تتحدث. وهذه ليست عادتك أبداً. وجف قلبي. أتكون مكتئباً بسبب سفرك لإجراء الفحوصات الطبية ؟. تلقائيا بدأت أفكر في احتمالات رعبك من الوداع؟.

هل تخاف من أن يتحقق الذي نخشاه، وأنت تحكي عن السفر باعتيادية، وتخفيه عنا بطريقة

ما . تقول أنك ستكتفي بالفحوصات، ولكنك سوف تقوم بالعملية الجراحية لو أقنعك الطبيب بها . لم تنصت لاحتجاجي ومطالبتي بتأجيل موعد فحوصاتك . قلتُ لك :

يا رب، ما تروح . أجلّ الموعد . . تعال احضر عرس طارق وبعدها بتروح .

لم يجب . كأنه تلبك .

تكلمت أنت و ياسر عن حتمية الموعد مع الطبيب .

وأعدت بعدها :

عندي موعد المستشفى .

لم أستطع النقاش . أنت أستاذي ومعلمي، ولم يكن بإمكاني الجدال . احترمت ما يرتب رغم تأنيب ضميري الآن لأني تصرفت باعتيادية وهدوء رغم نذر الخطر التي كانت تصرخ أمامي . هل كان عليّ أن أحذره كما كان يفترض، وكما دفعتني الحاسة الخفية كي أفعل؟ . كنت أخاف أن أشوّشه .

أخاف أن أزعجه لأني أعرف دقته ونظامه حين يخطط . وأخاف أن تفشل الأمور بسبب تكهناتي إن أعلنتها . كأن إخفاء الحس بالخطر كان سيساعده على قرار أصفى وأفضل . وأنا ؟ من أنا كي أتدخل في خياراته؟ . بيني وبين نفسي كنت شبه متأكدة انه لن يقوم بالعملية . هو أكّد أمامنا أنه لن يقوم بها . وأنا بدوري متأكدة أنه لن يقوم بها إلا عندما ننجز عرس طارق ونكون معه . لن يقوم بها لو كان فيها احتمالات الخطر التي سبق وحذر منها .

بدا ذلك حين رجع من باريس في نهاية شهر حزيران، وحين أخبره الطبيب المختص هناك بأن العملية ليست سهلة، وأنها قد تعني الموت الوشيك . أذكر انه أخبرنا أن طبيبه قال إنها عملية طويلة، ومعقدة، وسوف يتم وقف ضخ الدم عن الدماغ لفترة لا بأس بها مما يعني احتمالات الخطر المؤكد . ثم أردف : لكني أبداً لن أقوم بها . لأنها تحمل خطر الشلل أيضاً . وحدثنا عن المثال الذي ضربه الطبيب حول ديغول .

كان يفزع للمرة الأولى . وللمرة الأولى قرأ لنا قصيدة " لاعب النرد " . كنا ثلاثة، وبدأت أبتلع الدموع كي لا يراها هو وياسر . أشيح بعيني بعيداً . كأن ملاك الموت كان واقفاً يراقب في تلك اللحظة . حاولت أن أنقل الوضع إلى مستوى مختلف أكثر انشراحاً . قلت أني سآخذ عنوان " ليلك أخضر " كعنوان لروايتي التي أكتبها الآن .

" حزني كالطوفان
بعد أن رحل أستاذي، ومعلمي.

مثل نيزك
احترق
وهوى شقيقي الأكبر.

رحل الفارس
وترك بكرات من خيوط
الأحلام مفكوكة على الأرض.

نثرات من خشب
الأكاليل مسجاة على التراب
جفت عليها الزنابق
واستحالت دموعاً من حجر.

حزن الفراق كبير
قاموس
لا تنفد كلماته
أو حروفه.

ها إن "أنكيدو" يرحل
تاركاً جلجمامش
وشهر تموز دون دماء الشقائق الحمراء.

لكأن "أوزريس"
نسي ارتداء لباس الموت
وهو مقلع
في مركبة " هاديس " .

أمه العجوز تسأل عن رفات
الابن التي لم
لم تصل "أوتيك" .

أمه تسأل عن حياة
ليست للبطل
ليست للرجل .

وهنا ،
بدأوا يطوّبون
أنفسهم رغما عن طرواة القبر
وجهل التراب ،
ناسين أنهم في الأصل
لم يكونوا سوى ذرة من غبار .

أتساءل كيف سيرمد القذى
أعيننا
في غياب فرح حضورك .

أتساءل إن كان لمائدتنا
أن تشطر نفسها
بعد أن انثنى بعيداً
ضيفها الوحيد .

وأتعجب إن كان سيمر
العيد علينا
بطيئاً ، ملولاً ،
وقلقاً
في انتظار حضورك .

لا أعرف لِمَ لم أخبره
عن حياتنا مصبوغة
بالنشاء السماوي
في عز الليل .

عن ثقوب الغسق
الكاسر
في وضح النهار .

لم أخبره ، يا ليتني فعلت
عن امتناني
لشجاعات عديدة زودني
بها ،
وكنت أظن أنها بديهية .

لم أحمل كلمات الشكر
زاداً في الحلق
أو حلقوماً من الطفولة
كي أثني عليه
حينما دلل الابن .

كل الهدايا منه ،
كل شيء كان بديهياً
مثل قوس قزح
يطل صدفة
اثر مطر هائم .

القهوة الشذية التي كان يغلفها
عرفان الهدوء
حينما نكون هناك .

نبرة الترحيب
حينما يسمع أصواتنا
كي لا يطيح بنا الوقت
لاجئون ، نحن ، جائعون
إلى شمس السكينة .

مرآة الخشب الرومي العتيق
معتقة بماء الورد

وأصداف حرمون
تطل علينا بعيون واسعة
حافلة بالحنين .
في حضرة روحه
أصير نفسي
بلون واضح ،
دون النسخة السالبة .
يطل من هضبة
مثلث فضي
تحيطه دائرة من حديد .

هناك يرقد " أنكيدو " بعد أن
خلف " أور " القاسية
على جرف جبل .

الصقور تتنادى حول
ترابه
الأشجار تترمد فرقاً
لرحيله
النساء يبكين ابنهن
الفتيات يرثين مثال الحبيب
والرجال
هم أول من نقصوا
حلماً .

ألم يخبرنا يوماً
بأنه الريح إن حطت
على قلق
فهل سيعرف أن قلوبنا
لن تهدأ يوماً
إلا إن هب نسيم الروح فينا !

لم تكن يوماً حياة كاملة
ولن تكون .

نجوم حارة ، وأخرى باردة
نيازك تهوي
وأخرى تدوم .
وظلمات ليل لا يكف
عن فرض نفسه .
قيود ، وسجون
لا تني تمتد حيناً بعد حين .

فكيف نحيا
دون حلم
في بيت البحر في "كريت" .

كيف احتملنا

أيامنا في بيوت
ليست لها ساحات من ورود .

فلا تتركنا يا صديقنا وحيدين
على التلة
مع حصان الريح
وعشب الأمس .

لا *تبتعد عنا*
لا تغب
يا صديقنا الوحيد . "

مقاطع من نص طويل عن الشاعر